٩ رمضان: أول غارة إسرائيلية
١٠ رمضان: رد الاعتبار المصرى

أحيانا . . تقع فى الحياة أحداث تجمع قُدرا من المصادفات والتوافق والتقابل، أكبر مما تحتمله قدرة العقل البشرى . ورغم أن الإنسان يؤمن بالله . . خالقا لكل شىء ، وعالما بكل شىء ، وصاحب التصرف فى كل شىء ، فإن غروره – الإنسان – يجعله يبحث عن تسميات ومبررات بشرية لظواهر إلهية . ولأن عقله الباطن يريد أن يغطى عجز عقله الظاهر – ويريحه نفسيا فى ذات الوقت – فإنه يقنعه بالاكتفاء بتسمية هذه الأحداث : « تصاريف القدر الغريبة » . ومن هذا النوع من الأحداث : بدء إسرائيل لصراعها الطويل مع العرب من خلال مصر . . وبدء مصر لحسم هذا الصراع ورد اعتبار العرب أمام إسرائيل .

إبراهيم صالح

فى الساعة التاسعة مساء يوم الجمعة التاسع من رمضان ، الموافق منتصف مايو عام ١٩٤٨ . كان فى شارع جامع عابدين (باب باريز سابقا) الذى يطل عليه الباب الخلفى لقصر عابدين – قصر الملك السابق فاروق – كان هناك سرادق عزاء فى وفاة أحد كبار رجال القانون فى مصر فى ذلك الوقت . وبينما كان صوت المقرىء يرتفع بآيات الله البينات ، طغى عليه وقاطعه فجأة صوت انفضاض طائرتين ، تلاه دوى انفجار قنابل سقطت على بعد امتار من القصر والسرادق . حتى إن شظاياها تناثرت حولهما ، ثم صوت صفارات الإنذار . وأطفئت الأنوار . . وساد سكون الذهول ! ! .

فى تلك اللحظة . . انتهى مظهر من مظاهر الحزن الخاص ، لتبدأ مظاهر الحزن العام على مستوى مصر كلها والعالم العربى . . ولتبدأ مأساة شعب فلسطين .

كانت تلك أول غارة إسرائيلية على العمق المصرى ، بعد أن أعلنت مصر والدول العربية الحرب على إسرائيل بمجرد إعلان قيامها على أرض شعب فلسطين .

□ □ □

ويمضى الزمن . وتتحول الأيام – التى قيل إنها كافية لإنهاء وضع إسرائيل على أرض فلسطين – إلى أسابيع . . وشهور . . وسنوات طويلة ! !

□ □ □

فى الساعة الثانية وخمس دقائق بعد ظهر يوم السبت العاشر من رمضان ، الموافق السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣ ، والموافق – فى نفس الوقت – العيد الدينى اليهودى يوم « كيبور » أو الغفران ، كانت كل القوات الإسرائيلية فى خط « بارليف » المنيع – ! ! – على قناة السويس ، فى حالة استرخاء تام تحتمه طقوس ذلك العيد الدينى . وبينما كان صوت بعض العسكريين الإسرائيليين يتمتم بنزاميل من التوراة ، طغى عليه وقاطعه فجأة صوت الرعد المنبعث من أمواج الطائرات المصرية وهى تعبر قناة السويس وخط بارليف ، تلاه زلزال عنيف أحدثته ألوف الأطنان من القنابل المصرية المتساقطة فوق كل الأعماق الإسرائيلية فى سيناء المصرية .

ولم يسعف الوقت إسرائيل لإطلاق صفارات الإنذار . ولا استطاعت أن تطفىء نورا ، فإن التوقيت كان يعنى أن العالم الإسلامى كله كان يضيئه نور الله .

وساد الذهول على الجانب الإسرائيلى . ولكن . . لم يسد سكون من يومها . فقد توالت موجات المصريين مع صيحة « الله أكبر » . وامتدت الحركة والتغيرات إلى العالم كله . حتى اليوم ! ! .

فى تلك اللحظة . . بدأت تنحسر مظاهر الحزن العام على مستوى مصر والعالم العربى ، لتبدأ مظاهر حزن خاص بإسرائيل . . وحدها ! !

وكان ذلك بدء رد الاعتبار العربى – من خلال مصر أيضا – أمام إسرائيل .

□ □ □

الحدثان متواليان رقميا . . ولكن . . تفصل بينهما فى الزمن – مما نعد . . نحن البشر – خمسة وعشرون عاما . . وأربعة أشهر . . وتسعة عشر يوما . . وست عشرة ساعة . . وخمس وخمسون دقيقة . هذا حساب البشر . ولكنها ربما كانت فى حساب الله ، عز وجل ، بعض يوم . . أو حتى طرفة عين . فإن يوما عند الله كألف سنة مما نعد . . نحن البشر . ولم يكن الله سبحانه وتعالى ، تاركا عدوانا على المسلمين ومقدساتهم دون رد سريع . . بحسابه هو ، أما بقاء هذا العدوان أكثر من ربع قرن بحساب البشر ، فربما أراد الله أن نتعلم شيئا . ولم يتعلم أحد . لا العرب . ولا إسرائيل ! !

□ □ □

فالعرب لم يتعلموا أن « اللاءات » والشعارات التى أطلقوا بها حناجرهم – وحناجرهم فقط ! ! – أكثر من ربع قرن ، لا تستطيع وحدها أن تفعل شيئا سوى اراقة الدم المصرى – والمصرى فقط ! ! – فوق كل أرض عربية ! ! . .

ويبدو أنهم مازالوا لا يفهمون . ولهذا فهم لا يفهمون خطوات الرئيس السادات التى يكمل بها ما بدأه يوم العاشر من رمضان ! ! .

□ □ □

وإسرائيل أيضا لم تتعلم . لا مما فعلته هى بنا . . ولا مما فعلناه نحن بها .

فعندما ضربت إسرائيل العمق المصرى فى أكثر مواقعه حساسية – مقر الحكم فى ذلك الوقت – كان يفصله عنها كل شرق وادى النيل ، وقناة السويس ، ومئات الكيلومترات فى سيناء ومعظم فلسطين .

وعندما ضربناها نحن وشللنا حركتها ، كانت – هكذا تصورت – تختفى وراء قناة السويس . أقوى مانع مائى طبيعى كما قالت المراكز الإستراتيجية الدولية ، وخط « بارليف » . أقوى مانع صناعى كما قالت هى للعالم كله ، ومئات الكيلومترات فى سيناء المصرية وباقى الأرض المحتلة .

فالأرض . . بمساحاتها الشاسعة ، وموانعها الطبيعية والصناعية ، لم تعق إسرائيل عن الوصول إلى العمق المصرى ، ولا عاقت مصر عن الوصول إلى العمق الإسرائيلى . لم تكن الأرض – إذن – أمنا ولا أمانا لمصر . ولا لإسرائيل ! ! . .

ولكن إسرائيل لم تتعلم . ومازالت ، ونحن نقدم لها الأمن والأمان بالسلام ، مازالت « تفاصل » فى أشبار . . مجرد أشبار وقراريط من الأرض ، بحجة الأمن والأمان . تستر بها عورة أطماعها وأحلامها ! !

□ □ □

ومازال الزمن يمضى . قد يطول قليلا بحساب البشر . ولا يعلم مقداره الأخير إلا الخالق عز وجل . والله لا بد منم نوره ولوكره الكافرون . . والمنافقون .